زبيدة قريوس

– رواية –

جميلة سمير

الفصل الأول : زوبيدة

في ذاك الزقاق الضيق ذي المنازل الصغيرة المتراصة تتخله دكاكين بسيطة . في حي كان طابعه الأصالة؛ هناك تقطن زبيدة ، تلك الفتاة المنحدرة من عائلة قريوس والتي كانت من اكثر العائلات تشددا و غنى . في بيت العائلة الضخم حيث كان من النادر الحصول على مثل ذاك البيت فقد كان حكرا على الطبقات الاستقراطية حينها . فأين لك ببيت زين بأغلى و أفخم قطع الزليج والتي تمتع بتنضيدها المارة بباب من خشب الارز الأصيل و أرضية من الرخام اللامع كما وقد كان مجهزا بأرقى وأجود الاثاث.

ولكن كان لزبيدة رأي آخر حيث انها لم تعتبر الأرضية إلا طريقا طويلا متعبا تسلكه ذهابا و ايابا وهي تنظفه ولم تعتبر الأتاث الا قدرا حمل قطرات عرقها وهي تنقله من مكان الى مكان بغاية تنظيفه ولتنعم جدران الغرف ببعض التهوية . هكذا كانت تمر أيامها وما كان لينسيها شقاءها الا دراستها حيث كانت تعتبر المؤسسة التعليمية فضاء عبرت فيه عن أفكارها و قناعاتها لتكون الكلمات سلاحها الوحيد و مقاومتها في وجه أخيها "امبارك" حيث كان يعتبرها كخادمته، فكم كان يهوى ان يصب أبريق الشاي على البلاط ويبدأ في الصراخ والذي ما كانت لتعتبره إلا نباحا . فقد عرفت بعزتها و أنفتها فكانت اذا جاءت لتمسح الأرضية اعتبرتها مساعدة لذاك الكلب الضال .

لم تكن زبيدة لتكرهه ولكنها سئمت معاملته اللئيمة القاسية، فلم تجد خيارا غير التحمل حيث انها لم تجد غيره وسيلة فكلما إلتجأت الى والدها هم بتأييد اخيها و مقارنتها بجيرانهن فيبدأ هو الأخر بترديد أسطوانة كرهت سماعها عن جمال فلانة و لذة خبز فلانة و نضج فلانة, فحينها لم يكن النضخ بالمعرفة ولا بالفصاحة و لا ببلاغة الكلام و انما كان بقدر تشبه الفتاة بالدمى . كلمات عدت على أطراف الأصابع ، ابتسامة دافئة للحزن ، مشاعر متصلبة راكدة هامدة . هكذا كانت مثالية الأنثى حينها . و كان من تمرد زبيدة على نظام عائلتها مصادقتها لفتاة تزين محياها بلون اغمق و مال الى السواد . فقد كانت العنصرية صفة الأرستقراطية، فكم كانت أمها تكره صديقتها فلم تقبل يوما بإستضافتها في بيتها فتجلس الفتاتان في الزقاق يتبادلن اطراف الحديث حتى إذا جاء امبارك حمل الحصى ويبدأ برشقهن بها حتى تنفضن و تعدن الى بيوتهن، لم تكن زبيدة وحيدة أهلها بل كان لها ست اشقاء غير امبارك . فقد كانو مصدر سعادتها الوحيد حيث كانوا متلاحمين و متحابين فيما بينهم . ولكنها كانت الاكثر جرأة و تمردا ، كما و قد اهتمت بالقضية الفلسطينية والتي تعودت المشاركة في تظاهرات دافعت عنها فيها فكثيرا ما تسللت من حصصها لحضروها ، حتى ذالك اليوم حين لاحظت غيابها أستاذة و قامت بإستدعاء السيد قريوس و لكنها لم تكن تدري كم الضرر الذي ألحقته بزبيدة . قد كانت السيدة فاطمة محبة لعملها ،تعشق التدريس . فكم كانت تتمتع وهي تدرس طلابها الفلسفة . فكانت تنتقل بين افكار سقراط و أفلاطون في حب و عشق شديدين . كما و قد كانت زبيدة تلميذتها المفضلة . لكنها لم تدرك أنها بكونها طالبت بلقاء والدها اقترفت ذنبا عظيما في حقها . فلطالما ترقب سي محمد أي غلط من ابنته ليحرمها من

حقها في التعليم فقد اعتبر استدعاء الاستاذة فرصة بل هفوة لا تعوض .
التجأت زبيدة الى استاذتها تتسول فتتخلى في كل كلمة من تسولها عزتها وأنفتها ولكن كان ذاك بقصد أكثر شرفا و نبلا
+ زبيدة :"ارجوك يا استاذة لا تحرميني من حقي في التعليم. ألتمس منك المعذرة فإن مقصدي نبيل وغايتي شريفة " كانت تترجاها والدموع تنهمر من عينيها

×الاستاذة " و ما الغاية الاكثر نبلا من التعليم . اليس من خير الفضائل التعلم و التعليم !"

+زبيدة : "او لم نتعلم لنطبق ما درسناه في حياتنا اليومية ؟ فنصنع بذلك جيلا أفضل . حياة افضل . فلولا التضحيات لما وصلنا الى ما وصلنا اليه اليوم "

×الاستاذة :" سأعتبر كل اعتذاراتك واهية حتى تخبريني عن سبب غيابك "

+زبيدة : "قد كنت في رحلة كفاح و نضال عن إخوتي الذين لم أتمكن من رؤيتهم بل إني أحسست بهم و ملأ فؤادي شعور بالحمية حول هؤلاء المساكين المسلوبة أراضيهم "

ردت الأستاذة بنظرة حادة في جو ملأه الصمت الدامس ذاك الصمت المؤلم القاتل الذي لم يزل الا أدمى قلب زبيدة . وفي صبيحة الجمعة ، انطلق سي محمد في تأهب ارتدى جلبابه الرمادي و برنوسه المغربي . والأم و قد امتزجت المشاعر في فؤادها بين فرح بحصولها على مساعدة منزلية تعمل معها بدوام كامل وبين شعور عميق بالحزن فبعد ان ادركت أهمية التدريس حيث كانت فتاة قروية كان حلمها تكوين أسرة و تربية الابناء . و كفطرة غريزية، لابد للأهل ان يتمنوا لأبنائهم ان يكونوا افضل منهم . وهكذا كان حال السيدة عائشة فرغم حاجتها لمن يساعدها في الاشغال المنزلية بعد ان كثر عليها العبئء وكثرة الضيوف إلا انها كانت تتمنى مصيرا أفضل لابنتها فلم ترد ان تعيش نفس معاناتها و تتحمل ما تحملته من قسوة . فبدأت السيدة عائشة او كما يحلو للجميع تسميتها عويشة بتهدأة زوجها و إخباره ان استدعاء الاستاذة لم يكن الا تنويها بمجهودات زبيدة لتتلقى صفعة في محياها فتعود الى غرفتها دون اي نقاش فلطالما اعتادت النساء ان ذاك على التعنيف البدني و الشفهي . لكن عويشة شعرت بشيء ينبض بداخلها قد كانت على يقين انه ليس قلبها و انما كان شيء آخر . كانت تلك النزعة التي ستغير مجرى حياتها . فتندفع نحو طريق التغيير في طموح منها لتصنع النهضة في مجال حقوق المرأة ، عن طريق ابنتها زبيدة .

قد اصطفتها بين أبنائها ، فقد رأت في عينيها لمعة الأمل و رفض الظلم والاستبداد و ذاك الشعور بالانتفاضة . لتقرر عويشة لحظتها بذل المستحيل لتحقيق أحلام زبيدة . ورغم كل ما تمتعت به زبيدة من فضائل الا ان دائرة طموحها لم تكون بالواسعة فلطالما تمنت ان تصبح كأستاذة الفلسفة

الأجنبية وأن تكون أسرة بسيطة بإختياراتها وأن تكون مسيرة حياتها لا ذكور العائلة .

غير أن الرياح لا تجري بما تشتهي السفن ، فحين وصول زبيدة لسنة الباكلرويس ، تلك الشهادة التي ستحقق أمانيها و تصنع التغيير ، مرت زبيدة بحالة من فقدان الشغف و كمن مل من المسير وهو على بعد خطوة من الظفر بالكنز . كانت عويشة ترى حصنها ينهار ، أمالها تتدمر ، كلما كابدت من عناء و شقاء تدمر ، كل تلك الحصون الحصينة التي شيدتها لحماية ابنتها لتكون البنيان المرصوص لها تدمرت . ليملأ فؤادها ذاك الشعور المرير بالضعف و الانكسار بيد أن زبيدة كانت ترى في ذلك فرصة ، فقد اكتشفت أن طموحها هو الكتابة ، غير أن ضعف الإمكانيات و رفض المجتمع لأفكار المرأة جعلتها تصبح راقنة في أحد المكاتب ، كانت تحب عملها لكنه لم يكن طموحها ، حاولت كثيرا ، لكن دون جدوى ، حتى ذاك اليوم ، حين قررت العائلة الانتقال لبيت أوسع بعد أن كبرت العائلة بعد ولادة كل من سعيدة و مليكة اختي زبيدة . فتبيع بيتها القديم و يوم تفقد عائلة سوريتسو للبيت حيث قدم ابنهم الوحيد "جميل" لتفقده أيضا ، كان شابا في مقتبل العمر بشعره المجعد الطويل والذي كان موضة في ذاك الحين و سروال الجينز ذي الاقدام الواسعة و سترة جلدية ، فتقع عيناه على زبيدة و كلامها الثري ،الحكيم المليء بالموعظة و جمالها الأخاذ فقد كان محياها كالبدر لبياضه و عينيها الواسعتين اللامعتين و شفتيها المتوردتين المرسومتين . فيبدأ الهيام يملأ قلبه كانت زبيدة تبادله مشاعر الاعجاب ذاتها فقد استهوتها ثقافته الواسعة و لياقته الأفرنجية غير أنه كان يتحدث الاسبانية بطلاقة . تبادلا بعضا من الرسائل .

ليقرر لحظتها جميل التقدم لخطبة زبيدة، ملأ السرور فؤادها لتعم السعادة والسرور العائلة . استعدوا للزفاف والذي مر في أجواء كانت أشبه بالخيالية . لتبدأ الصراعات و عائلة جميل وخصوصا أخواته واللواتي كن يكرهنها كرها شديدا ويبغضنها لمجرد كونها زوجة أخيهم ....

وبعد سنة من الصراعات اللامتناهية ، و مقاومة زبيدة النكراء ، توجت بمولدها الأول .....

الفصل الثاني : عبد الباسط

لقد ولد ، انه بصحة جيدة ، إنه يشبهك يا زبيدة ... زبيدة .. هل أنت بخير " كان جميل يكرر كلامه و السرور باد على محياه ، كان يرنو الى ابنه نظرة الأب الحنون العطوف لكن هذا لم ينسيه زوجه والذي سرعان ما تذكر أنها تحت تأثير المخدر . فقد أنجبت مولودها عن طريق ولادة قيسرية ، كان الأمر مرهقا و شاقا بل أشد ألما مما ظننت ، لكن .. أين صغيري " كانت هذه أول كلمات زبيدة بعد استيقاظها . كانت متحمسة لرؤية صغيرها وبدء لعبة التشبيه . إنه يشبه أباه أكثر لا لا بل إنه نسخة عن أمه . لكن ، ماذا نسميه " تساءلت الأم و هي تنظر لجميل . قد فهم قصدها فلطلما أرادت تسميته جلول ولكن لدوافع متعلقة بالتقاليد و كثرة الإختيارات ، تم اختيار القرعة كوسيلة لاختيار الاسم . تمت تسميته بعبد الباسط نظرا لنتائج القرعة والتي ادت لاختيار اسم الجد " بوجمعة" للإسم . كان عبد الباسط طفلا شقيا ، عنيدا ، يكره الدراسة وخصوصا الرياضيات . غير أنه سرعان ما ظهرت عليه علامات جعلت قلب الأبوين يوجس في خيفة حيث أنه كان كثيرا ما يختنق كما أنهما لاحظا كبر رأسه الغير اعتيادي و شعوره الدائم بالعياء فتبدأ و ذلك رحلة من المعاناة كانت وِجهتها شفاء فلذة كبيدهما . سافرا كثيرا لعلاجه حيث وجدا طبيبا عرف بخبرته و حنكته و فعلا تم شفاؤه بعد أرق دام طويلا ، فكم سهرت زوبيدة من ليالي لتراقب صغيرها فلم يغمض لها جفن حتى ينام صغيرها و هو بأفضل حال . كانت مرحلته الابتدائية اعتيادية ، غير أن كان في سنته الأخيرة حدث جعلها بالمميزة حقا .

الفصل الثالث: لطيفة

سرت الأم ، الأب ، بل العائلة بأكملها بخبر حمل زبيدة للمرة الثانية ، غير أنها هذه المرة قامت بإنجاب فتاة ، قد اكتشفت زوبيدة بقوة و صلابة ابنتها قبل ولادتها ، حيث أنها كان على وشك الموت بعد نزيف تعرضت له الأم لكن جنينها قاوم بأعجوبة . ولد في شهر أغسطس ، كانت صغيرة جميلة. احبتها أمها كثيرا ، كانت تود ان تسميها "حفصة " و كالمرة السابقة ، تم تسميتها حسب رغبة الجد بلطيفة ، كبرت بسرعة ، كانت انطوائية و كثيرا ما أحبت النوم ،كانت أسهل أبنائهم تربية . حيث ان الأسرة نعمت بمولودة ثالثة و لطيفة في ربيعها الثالث. كان اسمها ريم حسب رغبة أبيها ، فقد سئم من انتظار حظه لينعم بتسمية أبنائه . كبر الأبناء الثالثة في جو عائلي مثالي . و عند التحاق لطيفة بالمدرسة الإبتدائية ، كانت تعاني كثيرا ، من تجاهل ، وتنمر صديقاتها ، غير أنها كانت تلميذة نجيبة ، فضولية ، و ما كان لينسيها معاناتها غير الدعم الأسري المقدم لها من طرف عائلتها ، وصلابتها ، حيث أنها لم تتأثر يوما وضلت صامدة . لتفرض شخصيتها و التحاقها بالإعدادية ... بينما كان عبد الباسط يعرف تفوقا دراسيا بعد سنوات من الكسل الدراسي أثناء دراسته بالإعدادية . غير أن مصير ريم كان مجهولا ، فلم يتمكنوا من اكتشاف شخصيتها الغامضة ... كانت الأسرة تعيش في جو عائلي عاطفي . و من كان يظن أن الأخيرة ستكابد من عناء بعد تلك الفاجعة.

الفصل الرابع : المفاجئة

في السابع من يناير ، تلقى جميل خبرا صاعقا بل كانت صفعة أدمت قلبه ، كانت تلك المتعلقة بإفلاس الشركة التي كان يعمل بها ، كان يفكر في مستبقل أسرته ، هل مصيرها الإنهيار ، و من معيلها و من يطعمها ، عاد الأب محدودب الظهر ، في عينيه غمامة اسودت بالهموم ، مركزا على أفكراه ، عاد الى مثواه ، لترتاب زوجته من أمره ، فقد اعتادت ابتسامته و نكته الي سردها بحب شديد ، كان الأب خجلا ، فقد قارب سنه الستين ، فأين له بوظيفة جديدة ؟

وبعد اكتشاف زوجته لسره الذي أخفاه طويلا ، أدركت ان وراءها عبئا ثقيلا ، فقد كان عليها التكفل بمصاريف عبد الباسط الجامعية ، و دروس ريم الإضافية ، وفواتير من ماء و كهرباء و غيرها ، و ذلك عدا المؤونة و خصوصا بعد موجة ارتفاع الأسعار و انخفاض القدرة الشرائية مما جعل الأسرة في أزمنة مالية خانقة . جعلتها في حالة من التقشف بعدما كانت في ترف شديد . علم الأبناء بالخبر ، كانوا يحاولون بشتى الطرق مساعدة أسرتهم .

الفصل الخامس: التغيير

وبينما كان عبد الباسط يقلب بين صفحات مواقع التواصل الاجتماعي ، وجد إعلانا لمباراة توظيف في صفوف الجندية ، لم يتردد قط بملئ الإستمارة . لينتظر بترقب موعد النتائج.

كان كل يوم يمر ، يقتل جميل ببطىء ، كان يتألم و يعاني في صمت ، كان يرى في أعين أبنائه نظرة الشفقة و التي لم تحل الا أن زادته ألما ، كانت زوبيدة مرهقة ، ما بين عمل و تدبير و أشغال منزلية كان يمر يومها الطويل الشاق ، أدركت قيمة جميل بينما أدرك هو الآخر قيمة زوجه . فيبدأ شيئا فشيئا بمساعدة زوجته مرة بغسل الأطباق و أخرى بتحضير الغذاء . و ما كان يرهق الزوجين أكثر من نظرات معارفهم اللئيمة ، تلك النظرة الي امتزجت فيها كل مشاعر البغض والشفقة و الاحتقار . فقد ذاع الخبر في أرجاء المدينة ، حيث كانوا يقطنون في مدينة صغيرة كانت أشبه بقرية غير أن خصائصها الطبيعية كانت مذهلة . من جبال تزينت بلون مخضر تزين هو الآخر بزهور البنفسج و شقائق النعمان الى شاطئ ذهبي ببحر مزرق ذي أمواج عاتية ، كان لكل جزء منه اسمه الخاص و لعل أشهرهم "كاسا بانيا " و التي تعني دار الغسيل نسبة لتواجد إحدى الدور بذاك الشاطئ والتي أنشئت خلال الإستعمار الإسباني للمنطقة . أخبرني بذلك والدي (جميل) و نحن نتنزه قرب الشاطئ . أخبرني أيضا عن طفولته و شبابه و التي كانت قاسية رغم أنه كان من أغنياء المدينة ، أحببت قصصه فعلا ، كانت شيقة و مليئة بالمغامرات . لكني كنت أشعر بالأسى فعلا ، حيث أني كنت أرى في عينيه حزنا عميقا كان يحاول دفنه في أعماقه لكنه لم يلبث الا أن دفنته التعاسة في دجاها الدامس . أدركت أن الأزمة ما هي الا دروس ، دروس حياتية ....

الفصل السادس : درس قاسي

قد كان الأمل سلاحنا الوحيد ، فقد كان الغد يوم الفرج ، والصبر المفتاح ، واليسر غاية تمنيناها من أعماقنا . كنت أدرس بالإعدادية ، كان لي عدد لا حسر له من الأصدقاء . لكن كان لي صديقة كنت قد فضلتها عن الأخريات . كنا نقضي أغلب الأوقات معا ، كنت أعرف عنها كل شيء ، غير أنها لم تكن تعرف عني الا القليل ، فأنا كاتمة أسراري ، حريصة في كلامي . غير أن ذلك اليوم ، كانت بمثابة الدرس الأكثر قسوة . في ذاك الأصيل حين أرسلتني أمي لتسديد دين لها ، مقدمة لي مبلغا لم يكن بالبسيط ، كان لابد لي ان آخذ ريم لدروسها الإضافية . تأهبت واستعددت للذهاب حملت الأوراق النقدية وانطلقت . وبينما كنت في طريقي ، التقيت بصديقتي المفضلة ليجرفني تيار اللهو والمزاح عن المسؤولية التي أخذتها على عاتقي . صعدنا تلك الهضبة الشاقة المتعبة والتي حملت معها دموعي وأحزاني . فسرعان ما وصلنا ذهبت لأتفقد جيبي فأجده فارغا فتروادني الهواجس ، وتنهمر عيناي بالدموع و كأنها الشلالات النضاخات . كنا في عمق أزمة مالية . فأين لأسرتي بذاك المبلغ . كنت خجلة من نفسي و من عائلتي. فكيف لي ان أرى معاناتهم و شقاءهم و أنا مكفوفة اليدين . بدأت البحث بشكل هيستري . اصرخ و أندد ، أهدي و أنوح كالثكلى . بحتث في كل مكان . لم أجد شيئا ، و كأن الأرض طمرته مبتلعة إياه . عدت الى المنزل ، وكان في كل خطوة أخطوها . ألم و حزن ، كنت أتخيل نظرات أمي ، وكيف أنها ستجلس وهي تفكر . لا حول لها ولا قوة . حتى معيلها -زوجها- هو الآخر ، يعاني شقاء التفكير . طرقت الباب . شعرت بشيء ، غير أنها كانت تحاول تفادي أي أفكار سلبية .فتحت السيدة زوبيدة الباب ، كانت

تعرف كل شيء عن ابنتها لطيفة . و دون أن تنطق ، عرفت كل شيء . بدأت الصراخ ، أمرتني بالدخول ، عنفتني بقوة ، لم أكن أشعر بشيء ، لكن شعور العجز كان يقتلني . كنت على يقين أن الخطأ خطئي ، و الذنب ذنبي ، حيث أني لم أكن على قدر المسؤولية . نعم ، إنه الدرس الأهم "المسؤولية" .
فالأخيرة ليست مجرد لفظة تلفظنا بها لنثبت جدارتنا و نقنع الآخر بذواتنا فهي تصرفات ، مواقف وأراء .

الفصل السابع : سجينة حرة

كنت سجينة هواجسي ، فلطلما أحسست و أحس بتأنيب الضمير . كنت أشعر و كأني عالة عاجزة . و كانت أفكار أخرى تراودني على أن صديقتي قد قامت بسرقة المال ، كنت مشغولة البال . " هيي ، ... هل أنت بخير .. لست على طبيعتك ، هل حصل معك شيء " رددتها أستاذتي بعدما لاحظت تشتتي عن الدرس . أخبرتها بكل شيء ، كنت أحتاج لأفرغ و أفجر ما بداخلي . شعَرَت بالأسى على حالي ، غير أنها لم تكن قادرة على فعل شيء . بدأ أصدقاءٌ بسؤالي . " لطيفة ... مابك ؟ لم نعتد على مثل هذه التعابير على محياك " أطرقت صامتة ، لم أرد بشيء . عدت للبيت ، امتنعت عن الطعام ، قمت أمشي ذهابا و إيابا . شعر والديّ بالريبة من أمري ، اوجسوا خيفة . أخبروني أن الحوادث تقع ، وأن الأنسان خطّاء بطبعه .

أدركت أن كل كلامهم ليس الا محاولة منهم لإخراجي من دائرة حزني وكآبتي ، لم أقتنع ، استسلموا ، واعتبروا الدهر أفضل علاج . آه ،وهل من علاج أشد فعالية من الزمن . فهو و النسيان رفيقا المرء الأول في أحزانه . كنت أحاول أن أجد أي طريقة أو وسيلة لتعويضهما ، غير أن لم يكن في اليد حيلة . فلست الا فتاة عاطلة تدرس بالأعدادية ، لم تكن لي أي فرصة للعمل . كان عبد الباسط ينتظر نتائج المباراة بفارغ الصبر . غير أن النتائج كانت مفاجأة بالنسبة له .

الفصل الثامن : غاية تمنيناها

كان اليسر غاية تمنيناها من أعماقنا ، كنا ننتظر كل يوم بترقب . حتى جاء ذاك اليوم ، حين قدم عبد الباسط و بسمة تعلو وجهه . نادى أمه :

"أمااااه .... لقد صدرت نتائج المبارااة . لقد دعيت لكي أجتاز الإختبار النفسي و الكتابي " أردفت أمه قائلة و قد أحست أن الفرج قادم " و متى الإختبار ؟ ... أين ؟ ... سأخبر أباك ، سيكون سعيدا حقا ". كنا جالسين في غرفة المعيشة ، نحتسي كوبا من الشاي الأخضر و النعناع مع بعض من الخبز الفرنسي المقرمش مرفقا بالزبدة البلدية و مربي المشمش لتدخل أمي و عبد الباسط الغرفة و قد تزين محياهما ببسمة عريضة و بعد أن أخبرانا بما حصل . سعدنا بسعادتهما و فرحنا بفرحهما ، قام أبي بعناقه و نظرة الفخر بادية على عينيه تلك النظرة التي جعلت عبد الباسط يندفع نحو تحقيق حلم أمه، فما جعله يقوم بالتقديم للمباراة هو أمنية زوبيدة بأن يصبح لها ابن في الجندية . كان لابد لعبد الباسط أن يسافر لمدينة أخرى كانت بعيدة عن مقطنهم بغاية اجتياز باقي الإختبارات . شعرت الأم أن كل ما كابدته من معاناة لن يدوم طويلا و ما هو الا ابتلاء و أن الأخبار الجيدة قد بدأت تنتج ثمارها .

الفصل التاسع : عبد الباسط قبل الجندية

انطلق مشوار عبدالباسط الجامعي مبكرا و هو ابن السابعة عشر ربيعا حياة جديدة،مدينة جديدة،فرص جديدة، هذا ما ظنه في نفسه ان كل ما عليه هو الدراسة بجد حتى ينجح و بمساعدة من امه تسجل الفتى بالجامعة شعبة القانون خيار فرنسي تمهيدا في تحقيق حلمه كقاضي او على اقل تقدير محام، فسكن بأحد البيوت البعيدة نوعا ما عن الجامعة معتمدا على الحافلة في تنقله،و بدأ العام الدراسي ووجد الشاب صعوبة في التأقلم مع الوضع الجديد ففي الجامعة تظهر الطبقيات الاقتصادية بين الطلبة.
فاصحاب الحافلة ليسوا هم اصحاب السيارات الفارهة و رغم ذلك وازن الشاب بين هؤلاء و هؤلاء نظرا لحسن وجهه و شخصيته المقبولة و بشاشة وجهه،الا ان ابتسامته تخفي وراءها هموما شتى و تفكيرا تهدت الجبال منه،فقد علم في قرارة نفسه ان وضع عائلته ليس بالميسور بل بالصعب و علم ان اصغر انتكاسة مالية كانت ستهوي بوضعيتهم،فدعى ربه كل صلاة ان ينعم عليه بعمل يحسن حالته المادية حتى يسنح له على الاقل توفير مصاريفه الخاصة في نفس الوقت اكمال دراسته ،و عند اختلائه بنفسه بعد الدراسة تعصف برأسه عديد من الافكار المتضاربة عن مستقبله و حاضره،و كم ستكون مخيبة امال نتائجه ليس لتكاسله و انما لظروف الدراسة الجامعية و ظلم التصحيح،فعلم الجهد المبذول من عائلته لتوفير هاته الظروف للدراسة ،فاستمر بدعاء ربه ان يجعل له مخرجا و يجعل بعد العسر يسرا،فعبد الباسط رغم كونه محبوبا من طرف الجميع و

ذو شخصية جذابة مرحة لا تقبل ان يحط بها و لا ان ينقص منها الا انه كان معاتبا لنفسه اكثر مما يفعله غيره،فتأزمت نفسيته خصوصا بعد النتائج الاولية للامتحانات البينية الاولى فقد تفوق رغم قلة ظروفه مقارنة بتوفرها لغيره ، فزاد ذلك الطين بلة و زادت وساويسه و مخاوفه،و فينعم ربك على عبد الباسط بوباء يجبره العودة الى بلدته وسط كنف عائلته،و اختلجت نفس عبد الباسط راحة و سكونا ظنا منه ان نفسيته ستهدأ و وساويها على ضغوطها ،ستخمد فيشاء ربه ان يمتد الوباء فترة اطول من المتوقع لتجد ان نفس الشاب غرقت هموما على همومها و ضغط ليعلم حقا ان ما كان يخشاه وسط ذهنه اصبح يهدده وسط واقعه، و في صيف نفس العام يراسل صديق قديم عبد الباسط ليخبره عن مباراة للالتحاق بصفوف الجندية على سبيل التجربة و حسب فاكتنفت نفسه قلقا من ظروف الجندية وغلظة منتسبيها و قساوة اشغالها، الا انه بالفعل ذهب لجتياز المباراة عسى ان تكون هذه هي المهنة التي دعى ربه ان يرزقه بها،فدخل الثكنة و دعوات امه تنهمر عليه فوق اسوارها العالية الحديدية و يجتاز الاختبارات كلها، فيطلب منهم الانتظار حتى تظهر النتائج النهائية ، و ينظر الشاب ذو الثامنة عشر من عمره فيجد شبانا ببدل مرموقة مكوية بعناية تظهر على وجوههم حسن التغذية و العزوف عن اشعة الشمس الحارقة انذاك و بجانبهم على بعد امتار قليلة جنوًدا تعتريهم نظرة الشؤم و السواد ، و جفون سوداء من قلة النوم،عظام وجوههم بارزة من سوء التغذية،بذلهم فقدت لونها و بريقها،اجسامهم هزيلة ،ظهورهم منحنية،لون وجوههم يفتقر لقطرات الدم واشعة الشمس ضاربة

في وجوههم كأنها خلقت فقط لها ،يشعلون سيجارة بعد سيجارة.فهمس عبد الباسط لنفسه نظرا لتفوقي في دراستي اكيد سأكون من اصحاب الوجوه النضرة،فزف لهم جندي شائب الرأس عن من غادر و البقية وجب عليهم الإدلاء بشواهدهم الدراسية،و بالفعل ذلك ما وقع فضمن عبد الباسط لنفسه مقعدا وسط هؤلاء و سكنت افكاره و قلت عما كانت عليه.

الفصل العاشر: عبد الباسط الجندي التعيس

و انضم عبد الباسط للجندية و تخرج جنديا برتبة ضئيلة و راتب لا يسمن و لا يغني من جوع ووجد نفسه اصبح كمن خشي ان يصبح ذات يوم،جنديا هزيل الجسم ذو عيون جاحضة كأنها تحكي من هول ما رأت ،بدلة ركيكة المنظر ،و حذاء جلدي اسود اللون يفوق الكعبين ،و زادت متاعبه عندما علم ان مكان عمله الجديد في قرية نائية كأن وحدته لم ينقصها الا وحدة الفيافي الخالية، فقبل الأمر العسكري، وفي كل صباح تراوده افكار مغادرة الجندية ليجد نفسه بين سندان الفقر و مطرقة القانون العسكري،فأين المفر ؟ فحاول الشاب تشتيت افكاره بالبحث عما يخلق في نفسه ذرة سعادة ككأس قهوة و فنجان شاي دافئ ومباراة كرة قدم تنسيه حاضره تسعين دقيقة لتعود بعدها، واستمر على ذاك الحال سنينا ليست بالقليلة عسى ان يفاجأه الدهر ويشفق على حاله و لازال الدهر يأبى و السنين تمر و ايام عبد الباسط تتكرر

الفصل الحادي عشر: من زاوية أخرى

كان الجميع و خصوصا أقرباء عبد الباسط يشعرون بالغيرة منه فرغم كل ما راودت نفسه من أفكار ظل معارفه يتمنون ان يحصولوا على وظيفة مثله فقد كانت البلاد تعاني من أزمة بطالة خانقة . فقد كان لعبد الباسط كل وسائل الترف بالنسبة لهم ، من مدخول شهري و عمل قار الى عائلة متماسكة مترابطة . كان فؤاد الأم يشتعل فخرا و سرورا بابنها ، فقد كانت على يقين ان كل ما قاست لتزرع بذراتها و التي بدأت تجني ثمارها عن طريق أبنائها . فقد كان توظيف عبد الباسط أول ثمرة تجنيها ، غير انها لم يهدأ لها بال فكثيرا ما اشتكى الابن لأمه لتبدأ هي الأخرى بالقلق لأمر ابنها و حاله التي ادمت قلبها. قد كان أبناء زوبيدة أغلى ما تملك و كانت على استعداد تام ان تضحي بالغالي والنفيس في سبيلهم . كانت لطيفة هي الأخرى تغوص في بحر الهواجس ، تجول بين أمواجه العاتية الضارية . فعلى عكس عبد الباسط ، كانت تهوى التفكير تدقق في أبسط التفاصيل . كانت تشعر عائلتها بالريبة تجاهها و كثيرا ما احسوا بالملل من كلامها . فلطالما ما تكلمت عن دروس التاريخ والرياضيات ، كانت تعتبر عائلتها ذاك المفر الذي استطاعت ان تتكلم فيه على سيجتها . فمع زميلاتها تغيرت شخصيتها فكثيرا ما القت نكت فتتعالى القهقهات حولها و الفتيات يحاولن التقرب منها غير انها لم تكن تشعر بتلك السعادة الحقيقة . فقد كانت تعتبر حياتها المدرسية لعبة هرمية و جب عليها الحفاظ على توازنها و الا انهار الحصن عليها . كانت تدرس اي خطوة تخطوها . كانت تدرك ان الحياة صراعات و عقبات و أنها ليست ماردا سحريا يقدم لك ما تشاء .

كثيرا ما نصحتها امها بالاستمتاع باللحظة و ترقب الغد بتفاؤل ، فقد كانت زوبيدة تؤمن ان القناعة و التفاؤل هما مفاتيح السعادة الحقيقية حيث أنها لم تكن ملكة سكنت القصور و لا مشهورة جالت البحور ، لكنها كانت أعظم من ذلك ، كانت زوجة يُتكل عليها و أمًّا يستند عليها .

الفصل الثاني عشر: مبارك

وبينما كان الجميع ينتظر الأفضل من مبارك حيث كان فتا متوفقا في دراسته و كان ذاك التلميذ الذي تنبأ الجميع له بمستقبل زاهر و أنه سيصبح شخصية عظيمة . كان الجميع ليعتبرونه قدوة لهم غير انهم لم يكونوا على دراية بشخصيته الأخرى . وكؤلئك الابطال المقنعين والذين لطالما توفروا على شخصيتن كذلك كان حال امبارك ففي بيته توفر على شخصية استبدادية انتهازية ، ورغم ذلك الا انه كان يعيش في توازن فلطالما اعتبر الاخير ان لكل امرء روحا متوحشة قبلية كان لابد له من التعبير عنها ولم يجد وسيلة لذلك غير اخواته ووالديه . رغم ذلك كانوا يتقبلون ذلك بأمل في التغيير . ربما تحققت امانيهم ولكنهم لم يحددوا أي نوع من التغيير فعلا . فقد كانت حالته تسوء فبعد ان تعرف على مجموعة من الأصدقاء ، الممتعين بالنسبة له و المواكبين للعصر في نظره ، غير أنهم كانو صنارة قذفت به الى اعماق الهاوية ، حاول الأهل و خصوصا سي محمد ان يكونوا مرساته التي سترجعه لبر الأمان ، لقد غاص في بحر انعدمت فيه وسائل النجاة . بحر المخدرات ، في بادئ الأمر لم يعتبرها الا وسيلة واكب بها زملاءه غير أنه صار يحس و كانها امواج عاتية تجرفه، لم يعد يتحكم في الموضوع كان يتناول سيجارة تلو الأخرى . و في ذاك اليوم حين طولب منه الذهاب لتقديم بعض ذاك السم النكوتني القاتل لأحد الأشخاص تم الإمساك من طرف خلية أمنية لقضاء على تهريب المخدرات . ليدخل دائرة من المشاق لم يدرك قُطرها و لكنه ادرك تماما انه مركزها و سبب نشأتها من الأساس ، من تلميذ متفوق الى ذي سوابق ، كم كان ذلك يحز في نفس الأبوين حاولوا بشتى الطرق ، بجميع الوسائل لكن

رغبة امبارك ام القدر كانت اقوى من ذلك . تم اطلاق سراحه بكفالة مالية . لكنه أصبح امبارك ذي السوابق .... ذي سوابق ، سوابق . كان هذه الكلمات تقتله شيئا فشيئا فإلم تقتله السموم الكيميائية فقد تمكنت منه السموم الإجتماعية . لم تستطع جفون ان تعرف الكرى رغم الدجى و كأنما تاه في الفيافي فلم يجد منقذا له .

غادر الدراسة بعدما قاسته نفسه الطاهرة المتوفقة التي باتت ضحية لنفسه السوداوية الكاحلة ، اصبح مدمنا ذي سوابق . اغلقت الابواب في وجهه فأين يذهب ؟ أين هو المنفذ . مبارك مبارك .... استيقظ ... هل ستبقى هكذا ... انا لا استطيع التحمل هكذا كانت تخبر امه كل صباح واجَه كلماتها القاسية بابتسامة باردة اشعلت فؤاء الأم غضبا غير انها لم تعرف بماذا احس الأخير فقد تمزق قلبه اشلاء كان يرى في عينيها نظرة الخيبة . ما أسوأها نظرة ! ... خرج من البيت بعدما لطم الباب لطمة قويةاهتزت الأم لصوتها رعبا . اخذ سيجارة من احد مدمني الحي شربها لكنها لم تستطع ان تشبع رغبته النيكوتينية والتي لم تلبث الا ان جعلته يهب و يصرخ كأنما كان كلبا ضالا اصابه الصرع ، كان بحاول بشدة ان يتماسك .

ما هي الا لحظات حتى رأى اصدقاؤه المزيفون انهم قد تمكنوا من اصطياد سمكتهم فبعد ان قذفوا لها طعما استهواها فبدأت تبحث عن الهلاك بيدها . قد قدِم اليهم مبارك طالبا بعض الجرعات لتظهر ابتسامة النصر على وجه زملائه الذين واجهوه بالرفض الا اذا قدم لهم بالمال بحجة ان العمل عمل و لا يمكن اقحام الصداقة في ذلك . اخرج مبارك من جيبه بعض الاوراق

النقدية و التي كانت كل ما يملك ليقدموا له في المقابل سر سعادته الوحيد . فبعدما كان يجد في قراءة الكتب والروايات لذة و غيثا اسقى به رياضه المثمرة و التي لم تعد الا صحراء جرداء سقاها بأمطار حمضية ذهبت بها الى منابع الحضيض .

اسودت عيناه و جحظت ، احدودب ظهره ، ثقل كاهله ، تلون شاربه بلون بني استاء لرؤيته الأهل ، كانوا يراقبون في صمت العاجز الهالك ، الذي مد يد المساعدة حتى كلت وأبت الاستمرار. اهل من منقذ ؟ افعلا سيستمر الغريق في غرقه ؟ و تضل جيوب تمتلئ من معاناة و قهقرى ؟ أيثقل كاهله بينما تتثقل جيوب مالا ؟

الفصل الثالث عشر: مستقبل مجهول

تمر الأيام و السنون بسرعة ، سرعة ربما لا نستطيع ادراكها الا انها تترك في افئدتنا شعورا بالدفئ ربما كان قادما من حرق ذكريات الماضي ثم تنسى فتحل محلها ذكريات اخرى . وهكذا دوالي ، قلوب بكت عانت و قاست ، قلوب لم تجد مفرا غير الشكوى لخالقها ربما بهداية تفوق الادمان . كحال والدي مبارك الذين ظلا في حيرة من امر ابنهما العاطل المدمن ، والذين اصبحا جدين بل جدين لاجداد غير انهما لم يسلما من تأثير الدهر ، حيث تركا منزلهما بل عشهما الذي بنوه غصنا بغصن ، بل و تركوا مدينتهم بل مسقط رأس ابنائهم و ذلك بسبب الأوضاع الصحية للسيدة عويشة ، تلك السيدة الطيبة ، ذات القلب الرؤوف الحنون ، ربما لم تتمكن يوما من رؤية أحفادها لكن حقا رأتهم بفؤادها بروحها النقية الطاهرة ، نفس عزيزة صبرت على الابتلاء و لم تنس ان الدار الدنيا ليست الا اختبار ، فظلت باسمة متزينة بابتسامتها الساحرة ، راجية من خالقها ان يمدها بالقوة فما كان لها الا استجابة دعواها اذ امدها بقوة القلب و اليقين ، قوة الصبر و الإيمان . لمساتها ،نظراتها البريئة، كانت و ما زالت مرسخة في ذهن كل من لاقاها . احبت وأُحبت بصدق . كان اسعد لحظاتها زيارة ابنائها لها ، و اجتماعهم على كأس شاي و رغيف من الخبز ، فما كان لها من متعة اللقاء الا سماع احاديثهم ، تحسس اياديهم ، و الدعاء لهم ، كما و كثيرا حكت عن حياتها قبل الزواج ، في قريتها النائية باحدى المدن الشمالية ، و كم كانت تستمع في جمع الاغصان و اعداد الخبز لتختتم يومها باللعب في الحقول و النسيم يداعب شعرها فتقابله بابتسامة خجل من جمالها الزهر تنحنح .

و في كل مرة، أتَم ابناؤها قصتها بسرد كيف التقى الأبوان ، و ما رافق ذلك من مغامرات شقية ربما لكانت فيلما استلذ بمشاهدته القوم كبارهم و صغارهم . فيُتِم الجد كلامه فيبدأ في القاء بعض الالغاز التي تنافس في حلها الاحفاد و قد علت نظرة الحماس و التحدي اعينهم فيسرد بعدها قصصا خيالية ليرعب بها احفاده الذين استمتعوا بالسهر ليلا ، فلطالما ازعجوه وهو نائم ليستعمل الكلمات سلاحا واجه به اصرار احفاده على السمر . ليال ظلت محفورة في اذهان الاحفاد فيشكل تكرارها شوقا في افئدتهم .

ربما ، تغير مقطنم ، مدينتهم و جيرانهم . لكن قلوبهم الصافية الخالصة . ظلت كما هي ، فكل من لاقوهم ، احبوهم ، الفرمسي سي حماد ، صاحب الدكان عبد الله ، فقد كانوا يحسنون معاملة الكل، كما و قد اشتد سخاؤهم بالعلاوات ، كانت غبطة الجد واضحة من جيرانه ، فقد كانوا يكنون له من المحبة و الاحترام ما اسعد قلبه

الفصل الرابع عشر: لعبة الانتظار

بعد انتظار طويل ، و جهد جهيد ، امضت سنة كاملة ، تكد و تجد . كانت لطيفة تنتظر بلهفة قبولها باحدى المدارس ، كانت الاخيرة احلامها ، فقد شكلت محور حياتها و أفق طموحاتها ، كان كل ما تقوم به من جهد في سبيلها ، اعتبرتها ارضها الخصبة التي تسقيها بكل شغف . شجعها عبد الباسط ، امها ، عائلتها وكل من أكنوا لها بصلة من الصداقة . كان الحماس ، الشغف ، التشويق ، وخاصة لعبة الانتظار ، ربما ، امتعضنا منها لكنها في الحقيقة لذة الحياة و محركها ، فأنت من تقرر أن تكون المنتظر ام المنتظر ، ربما بدت كلمة المنتظَر غريبة لكنها اقرب للواقع من الخيال ، فكيف لا و حين تطرق ابوابا مختلفة فلا تنتظر شيئا و انما تستمتع بكل تجربة فتصبح انت المنتظَر في خوضها . تلك كانت استراتجية لطيفة ، استمتعت بكل لحظة من لحظات عامها الدراسي لكن شغلها الشاغل هو تحقيق هدفها و ارضاء نفسها الشغوفة المثابرة ، احست ان عجلة الحياة تلعب لصالحها ، ربما اعمت الثقة بصيرتها حيث كان اليقين بقبولها يتملك ذهنها ، كما ان لحدس الام قوة غريبة ، ام ان ذلك مجرد وهم تحكمت به الجوارح فارتقت به ابعاد السماء، فالأم كلمة شملت في طياتها جميع معاني الحب ، التفاني و الاخلاص ، كانت زبيدة على ثقة تجاوزت حد الايمان بابنتها ، لكنها شعرت ان تلك الفرصة ليست بالمناسبة ، احست بأن ذلك المكان ليس المكان المناسب و لا الزمان ايضا ، غير ان نظرة الامل التي علت عيني ابنتها انستها كل ما احست به حدس . بعد مدة ليست بالطويلة ، نادت الأم ابنتها في ذاك اليوم الحار و المشمس حيث سطعت اشعة من النور من نافذة البيت الصغيرة على محيا

لطيفة المبتهج لتخبرها امها ان لائحة القبول قد ظهرت و لم تلبث الام لتنهي كلامها حتى ذهبت لطيفة مسرعة نحو الائحة فتتوق عيناها لرؤية اسمها لكن سرعان ما انهكهما التعب بعدما قرأتا الأسماء مرارا و تكرارا لكنهما لم تجدا لتلك الحروف المتراصة في ترتيب اشتهتهم عيناها مكانا فلم تجد عيناها حلا غير ذاك السائل المالح الذي ذرفتهما بكل اخلاص و ألم فكم سهرتا و لم تعرفا للنوم مذاقا في سبيل رؤية ذاك الاسم مخطوطا على تلك الائحة لم تذق جفونها الكرى تلك الليلة بل و فضلت ذرف الدموع على ذلك ، فتبدأ الجوارح هي الأخرى بزيادة الجروح هي والهواجس فقد بدأت لطيفة بتذكر كل الشقاء الذي سببته لوالديها و حجم الثقة التي منحاها اياها لتحقق ذاك الحلم ويكون بذلك جزاؤهما و ثمرتهما الاولى من شجرة العناء والجهد و التربية التي تكدبا خسائرها و متاعبها طوال هذه السنين الطويلة ، ظلت لطيفة على هذا حتى اشرقت الشمس من جديد بل و اشرقت شمسان .

الفصل الخامس عشر : شمسان

كانت الشمس الأولى هي ذاك النجم الساطع المتوسط للمجرة بينما الثانية هي شمس النسيان وبداية إلتمام الجروح فبعد اسابيع طويلة ادركت لطيفة ان للقدر النصيب الاكبر من لعبة الانتظار و ان ما كان عليها القيام قد قامت به فعلا وعلى اكمل وجه ، حاولت الاستمتاع بما تبقى في عطلتها الصيفية ، غير ان شعور الألم لم يشفى بعدما احست انها تتخبط في دروب الدنى دون جدوى فقد فقدت الغاية التي تمنتها ، احست بشعور عميق بالوحدة ، وحدة اقل ما يقال عنها انها بالغربية ، وحدة ملأت فؤادها رغم التفاف الناس حولها ، شعرت ان لا أحد يفهم ما تحس به و ان كل ما تقوله لا يحمل على ذاك القدر من الجد الذي تمنته في أعماقها ، فيصبح منقذها من هذه الوحدة الأليمة العميقة هو صلواتها و دعاؤها ففي كل مرة احست بالوحدة تذكرت ان لها خالقا يساندها في كل الأوقات بل و يستمع لكل ما قالته سرا وعلانية و ربما كان هو ما أنساها الكثير من ألامها فكثيرا ما دمعت عيناها وهي تدعو الله ان يخرجها من هذه المأساة و انها لا تقوى على ذلك ، احست بشعور عميق بالطمأنينة و ما اجملها طمأنينة بعد دعاء طويل و تضرع شديد !

ولربما لم تكن شمسها الثانية هي النسيان بل و كانت تضرعا و دعاء لخالق رحيم حيث انها لم تنسى يوما ذاك الشعور الدفين العميق بالإحباط و الفشل ولكنها اصبحت على يقين ان لله الحكمة في ذلك .

الفصل السادس عشر: اللقاء

وبعدما شق كل من الشقيقين مبارك و زبيدة طريقهما في هذه الدنيا الغربية ، غريبة الى اقصى الحدود ، تفرق و تجمع ، تبعد وتقرب ، تؤنس و توحش ، ولربما هذا ما حصل مع الشقيقين حيث و بعد افتراقهما لمدة طويلة ، كانت سنينا جعلت زوبيدة تنسى معاناتها مع اخيها ، انساها في ذلك انهماكها في فك الخيوط ، خيوط مشاكل ابنائها ، عملها و حياتها بينما جلس مبارك في دوامة لا يعرف لها منفذا ، دوامة تنكهت بطعم الهلاوس و النيكوتين ، قهقهات صادرة من روح فارغة ضائعة ، قارب عمره الستين و عمله الوحيد هو التربع في الأزقة و مراقبة المارة ، ما يلبسون ، ما يحملون في قففهم ، ماذا فعل فلان و فلانة ، كانت ايامه تتكرر بشكل تعيس و كئيب غير ان لقاء واحدا سيخرجه من هذه الدوامة الأزلية ، لقاء كان ليظهر مدى تعقيد هذه الحياة و كيف للقدر القوة الاكبر ، حيث يلين القلوب و ينسيها ما قاست ، فجأة رن هاتف مبارك الخلوي ليصعقه اسم المتصل ، كانت زبيدة ، رد الأخ و الريبة بادية على وجهه .

السلام عليكم ،.... قالت زبيدة ثم اطرقت صامتة لتعرف هل كان سيرد ام لا.
اجاب بلهجة لئيمة متعالية : وعليكم السلام !... ماذا تريدين ؟
ردت و قد بدأ الغضب يتملك منها محاولة الاختصار : .. لقد وجدت لك عملا في احدى الشركات ستعمل بعقد يتم تجديده اذا راق لهم عملك. تعال الى مكتبي لمعرفة التفاصيل ... . سعد مبارك لهذا الخبر اغلقت زبيدة الخط . ذهب مسرعا لبيت العائلة القديم حيث كبر الأشقاء الثمانية لكنه اصبح

خاليا مهجورا لا يقطن فيه الا مبارك و الذي جعل منه كالحديقة الجرداء بعدما كان من ابهى البيوت و اكثرها جمالية ، ذهب الى غرفته ليقوم بالاستعداد لملاقاة زبيدة حيث لم يُرِدها لترى حالته المزرية وثيابه الرثة وانما ارتدى اجمل الملابس وتعطر ، يركب الحافلة المتوجهة نحو مكتب زبيدة ، ليكون ذاك لقاءهما الأول بعد سنين طويلة ، سرت زبيدة للُقياه لكنها اخفت ذلك وتحدتث معه برسمية بالغة ، ارسلته لأحد معارفها و الذي قام باعطائه العقد لتوقيعه فيباشر الأخير وظيفته و الذي كان ليطير فرحا بها و لكنه اخفى ذلك ايضا شكر شقيقته برسمية ثم انصرف .

الفصل السابع عشر: الموعد المحتم

ظنت زبيدة ان اخاها تغير وان تلك المدة الطويلة كانت كفيلة بتغييره لكنها ربما كانت بالمخطئة ، فرغم كل ما قام به وكل ما قاساه لم تلبث تلك الروح السلطوية المتحكمة ان تسيطر على وجدانه فيريد التحكم بزبيدة و احيانا تمنى لو لم تعمل اصلا فقد ظلت فكرة ان مكان المرأة هو المنزل راسخة في ذهنه رغم مرور كل هذه السنين. فتقرر زبيدة انها لن تتدخل مجددا في حياته بعدما انقذته مرات عديدة من الطرد بعدما تسبب في مشاكل اثناء مزاولته لعمله ليتسبب لها هي الاخرى في مشكل كان بالكبير نوعا ما حيث انه بدأ بالصراخ عليها في مكتبها بعدما تأخرت قليلا عن موعد خروجها من العمل بسبب الضغظ و الأشغال المتراكمة فتهيج تلك الروح الوحشية الهمجية ويبدأ بالضرب على الطاولة وأمرها بالذهاب فيحضر المدير ويبدأ مبارك بالصراخ عليه ايضا مما جعله يستشيط غضبا و يقوم بتقليص مدة عمل مبارك و عدم تجديد العقد معه و هو ما جعل مبارك يستيقظ و يدرك ما قام به لكن بعد فوات الأوان . فهل فات الأوان الآن بعدما قام بفعلته هذه ام ان الأوان فات بعدما لم يغير من افكاره الخاطئة في نظر المجتمع الحديث . فهل المرء السوي هو من يتشبت و يتعصب على المبادئ التي ترعرع عليها ام من يتغير و تغيرها بمرور الزمان ؟

الفصل الثامن عشر: النهاية

الحياة فانية ، و لكل موعد رحيله منها ، رحيل ابكى عيونا و ادمى قلوبا احبت بصدق ، صدق انقى و اصفى من اين يخط و يعبر عنه بالكلمات ، حب تجاوز حد الهيام ، مرسخ في القلوب ، قلوب ارتبطت قبل التقائها ، لم ليكون ذلك اي حب وانما حب الأم ، أم لم و لن تكفي الحروف لوصفها ، تبقى الرفيق و الصديق الأزلي ، حضن وجد في الشدة والرخاء ، يد ربتت على الظهر في الصغر و الكبر ، عين رأت ما لم يره الآخرون ، قلب احس بما لم يحس به احد و احب الى حد الجنون و لسان لم يكف عن الدعاء بكرة و اصيلا ، ربما تفرق بين قلب الام و الابن المسافات لكن القلوب تبقى في ارتباط حتى يصيران قلبا واحدا انصهر بقوة حب تجاوزت عنان السماء .

كان ذاك اليوم هو موعد رحيل السيدة عويشة ، تلك السيدة الطيبة الكريمة التي تسلحت بالإيمان في وجه مرضها و ألمها ، لم تكن لترى الدنيا بعيونها وانما بقلبها الصافي الطاهر ، إبر كانت تغرز في يدها المجعدة بارزة العروق بشكل يومي لكنها كانت شديدة الصبر قوية الايمان والتضرع للخالق الرحيم ، فما كان لرحيلها الا ان يكون رحمة لها ، غير انه ابكى و ترك في افئدة ابنائها ، احفادها و زوجها جرحا لا يشفى و لاينسى . حيث كان لصوتها المليء بالألم الأثر العظيم في نفوس هؤلاء ، فدعواتها كانت سلاحا لهم في مواجهة عقبات الدنيا ، كان لمكالمة واحدة ان تنسيهم سنين من الوحدة ، الألم و الشقاء و لكن لكل موعد ذهابه لدار الفناء فلو كان للمرء ما تمنى فلن يجد

أفضل من إلتمام احبابه حوله وسماعه لأصواتهم و رؤيتهم لبسماتهم على الدوام .